مجلة
المجمع العلمي العربي

تموز وآب سنة ١٩٤٧ شعبان وشهر رمضان سنة ١٣٦٦

كنوز الأجداد

— ٤ —

الماوردي

(ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب)

(٤٥٠)

الماوردي نسبة الى بيع ماء الورد ، نشأ في البصرة وتلقى العلم فيها ، وهو إمام في الفقه والأصول والتفسير ، بصير بالعربية والأدب ، من اعظم الكتاب ، معتدل في تأليفه ، هادئ في أفكاره ، أوحد في فنه وفهمه ، محمود الطريقة ، مطمئن النفس ، حريص على الاستفادة ، بعيد عن الدعوى والهوى . تولى القضاء في بلدان كثيرة ثم غدا أقضى القضاة ، يفتي بمذهب الشافعي ، وقيل انه كان فيه ميل الى الاعتزال .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذا غاية ما كتبه المؤرخون فيه واجمل ما فيه أسلوبه في اسفاره « الاحكام السلطانية » و « أدب الدنيا والدين » و « أعلام النبوة » و « قانون الوزارة » وفيها تتجلى شخصيته عن معرفة ثاقبة بأمور الدولة واضطلاع واسع بتاريخ الحركات الفكرية والسياسية في الاسلام .

لم يقتصر الماوردي على الأخذ عن الشيوخ وتصفح ما خلفه من تقدموه بل قرن الى علمه تجارب تنبئ عن نفسها ، ومعارف منوعة لقفها من الحياة وما عاناه من مشاكل العالم ، وعُمِّر حتى بلغ السادسة والثمانين فكان له دور سكون ارتاح فيه من هزاهز العيش ، وانصرف الى التأليف وخدمة أمته .

تتمثل الماوردي وانت تقرأ « الأحكام السلطانية » كأنك تقرأ كتاب عالم عصري قتل الأيام تجربة ، ودوّن زبدة الأحكام التي تشغل الأذهان . وكتبه من الكتب التي تدعوك الى نفسها أبداً وتحبب اليك ، اذا تصفحتها مرة ساقتك بدون تعمد الى معاودة قراءتها وكلما تلوتها انصرفت عنها بجديد .

حقاً ان الأحكام السلطانية مرجع فريد في بابه ، ولو لم يكن له غيره من المصنفات لعدّ في زمرة من أبدعوا الابداع كله في مصنفاتهم . واذا حدقت النظر في هذا المصنَّف تراءى لك ان الماوردي لم يتقن من فنون العلم غير هذا الذي يحدثك فيه ويفيض عليك منه . ذلك لأنه لم يقتصر على الأخذ عن الشيوخ وتفهم نصوص العلماء في الكتاب والسنة ، بل شفع علمه بتجاربه وما درسه بذاته وهدته اليه الأحوال . جمع الى معرفته الواسعة معرفة أصول الإسلام وفروعه وعلمه وعمله ومنطوقه ومفهومه وكل ذلك يزينه وقوفه على سياسة الخلق ومهارته في حسن القضاء بينهم ، وحسن التأليف لأجيالهم .

افاض في الأحكام السلطانية في الخلافة وتقليدها والوزارات وانواعها والامارات والولايات ، والقضاء وضروبه والمظالم ، والنقابات والجبايات والصدقات والاقطاعات ، وانواع الدواوين واحكام الجرائم والحسبة والمنكرات والمعروفات الى ما له مساس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بإقامة العدل بين الرعية . جمع ما كان متفرقاً في بطون الدفاتر ونسقه وعلق عليه وخالف عُرْفَ علماء وقته في مسائل اجتهد فيها فتحملوه وما شاكسوه . واكتفى من دنياه بما اعطته فكان خير معلم للناس في حياته وبعد مماته ، أتاها بكتب تُتلى ولاتبلى جدتها على غابر الأحقاب .

ومن تدبر الأحكام السلطانية وقارنه بالأحكام السلطانية للقاضي ابي يعلى يتبين له الفرق بين رجل أفاده دخوله في المجتمع ورجل درس الحديث والفقه واقتصر على ما تلقاه في مجالس العلماء فجاء كتابه نظريا ، وكان كتاب الماوردي عملياً ، وكتابه هذا ما امتع هذا الامتاع الا لأن صاحبه كان قاضياً لامعاً وسياسياً مبرزاً يقل في أهل صناعته أمثاله ، وأوحت اليه مسائل الناس والدول اشياء احسن تلقفها وتصويرها والانتفاع بها .

كان الماوردي قادراً في ضبط نفسه فيما ليس منه ضرر على الدين او الدنيا ، يبتعد عمن اذا رأى محبرة تطير منها وان وجد كتاباً اعرض عنه ، وان رأى متحلياً بالعلم هرب منه ، كأنه لم ير عالماً مقبلاً ، وجاهلاً مدبراً . قال ولقد رأيت من هذه الطبقة جماعة ذوي منازل وأحوال كنت اخفي عنهم ما يصحبني من محبرة وكتاب ، لئلا اكون عندهم مستثقلاً ، وان كان البعد عنهم مؤنساً ومصلحاً والقرب منهم موحشاً مفسداً .

وكان اذا عرض أمر يعود على الدين بالضرر يستأسد ويزمجر وينزع ثوب السيامي ويلبس ثوب العالم الشجاع على ما كان منه لما امر الخليفة ان يزاد في ألقاب جلال الدولة بن بويه لقب « ملك الملوك » فما افتى الماوردي مع من أفتى بجواز ذلك مع انه كان من خواص جلال الدولة ، ولما أفتى بالمنع انقطع عنه فطلبه جلال الدولة فمضى اليه على وجل شديد ، فلما دخل عليه قال له : انا اتحقق انك لو حابيت احداً لحابيتني لما بيني وبينك ، وما حملك الا الدين ، فزاد بذلك محلك عندي . ولذا قال المؤرخون انه كان محترماً عند الخلفاء والملوك « وكان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ذا منزلة من ملوك بني بويه يرسلونه في التوسطات بينهم وبين من يناوبهم ويرتضون بوساطته ويقنعون بتقريراته » .

وكتابه الثاني « أدب الدنيا والدين » من أمتع ما كتبه علماء الأخلاق والتربية ، مصادره الكتاب والسنة واقوال الحكماء والبلغاء ، وفيه طائفة من الشعر البديع والنثر المنسجم . ومما قال عن نفسه في كتابه هذا : ومما انذرك به من حالي انني صنفت في البيوع كتاباً جمعت فيه ما استطعت من كتب الناس ، واجهدت فيه نفسي وكددت فيه خاطري حتى اذا تهذب واستكمل وكدت أعجب به وتصورت انني اشد الناس اضطلاعاً بعلمه ، حضرني وأنا في مجلسي أعرابيان فسألاني عن بيع عقداه في البادية على شروط تضمنت اربع مسائل لم أعرف لواحدة منها جواباً فأطرقت مفكراً ، وبحالي وحالها معتبراً ، فقالا : ما عندك فيما سألنا جواب ، وأنت زعيم هذه الجماعة ؟ فقلت : لا . فقالا : واهاً لك . وانصرفا ثم أتيا من يتقدمه في العلم كثير من اصحابه فسألاه فأجابهما مسرعاً بما اقنعهما وانصرفا عنه راضيين بجوابه ، حامدين لعلمه قال فبقيت مرتبكاً وبحالها وحالي معتبراً ، (وانني على ما كنت عليه في تلك المسائل الى وقتي . فكان ذلك زاجر نصيحة ونذير عظة تذلّل بها قياد النفس وانخفض لها جناح العجب ، توفيقاً منحته ورشداً أوتيته . وحق على من ترك العجب بما يحسن ان يدع التكلف لما لا يحسن ، فقد نهى الناس عنهما واستعاذوا بالله منهما .

وعلى ما عرف به الماوردي من بعد النظر والتحري في قضائه أورد أشياء في كتابه اعلام النبوة اذا وضعت على محك النقد كانت مثار العجب منه وهو الراوية الحسن الرواية والنقادة الذي يمتاز باستخراج السقيم من السليم وقد نسب اليه هذان البيتان :

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله فأجسادهم دون القبور قبور
وان امرءاً لم يحي بالعلم صدره فليس له حتى الممات نشور

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الأشعري

(ابو الحسن علي بن اسماعيل)

(نيف وثلاثون وثلاثمائة)

نشأ من بيت عريق في العلم والفقه والمناظرة والقضاء والفتوى وأخذ العلم عن ابي علي الجبائي امام المعتزلة وتبعه في الاعتزال وألف في نصرته والدعوة اليه ، وأقام على الاعتزال اربعين سنة حتى صار للمعتزلة اماماً ، ثم تغيب في بيته عن الناس خمسة عشر يوماً ، وقالوا انه تاب من القول بالعدل وخلق القرآن وذلك في المسجد الجامع بالبصرة ورقي كرسياً ونادى بأعلى صوته في يوم الجمعة : من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي انا فلان بن فلان كنت أقول بخلق القرآن وان الله لا تراه الأبصار وان افعال الشر أنا افعلها ، وانا تائب مقلع . واهل العدل فرقة من أهل التوحيد تقول ان الله انما خلق الخلق أجمعين لصلاحهم ونفعهم .

قال : معاشر الناس انما تغيبت عنكم هذه المدة لأني نظرت فتكافأت عندي الأدلة ولم يترجح عندي شيء على شيء ، فاستهديت الله فهداني الى اعتقاد ما أودعته في كتبي هذه ، وانخلعت من جميع ما كنت اعتقده كما انخلعت من ثوبي هذا . وانخلع من ثوب كان عليه ورمى به . ودفع الكتب التي ألفها على مذاهب أهل السنة الى الناس . قالوا ان المعتزلة كانوا قد رفعوا رؤوسهم حتى ظهر بدعوته فجحرهم في اقماع السمسم .

رواية غريبة مثلها ابو الحسن تمثيلاً مقبولاً ، فاتى بما أتى صولة العامة ، واستمال قلوبهم وأقنعهم بتوبته عن الاعتزال ، ورجوعه عن مذهب لا يخالف ما خرج اليه الا بما لا بال له . وقد وفق في نزعته الجديدة توفيقاً لم يسبق له مثيل . ولما سلك طريقاً بين النفي الذي هو مذهب الاعتزال وبين الاثبات الذي هو مذهب اهل التجسيم وناظر على قوله هذا واحتج لمذهبه مال اليه جماعة وعولوا على

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

رأيه منهم الباقلاني وابن فورك وابواسحق الاسفرايني وابو حامد الغزالي والشهرستاني ونخر الدين الرازي وغيرهم ونصروا مذهبه وناظروا عليه وجادلوه فيه واستدلوا له في مصنفات كثيرة فانتشر مذهبه في العراق من نحو سنة ثمانين وثلثمائة وانتقل الى الشام .

يقول ابن خلدون ان الشيخ ابا الحسن الأشعري امام المتكلمين توسط بين الطرق ونفى التشبيه وأثبت الصفات المعنوية وقصر التنزيه على ما قصره عليه السلف وشهدت له الأدلة المخصصة لعمومه فأثبت الصفات الأربع المعنوية والسمع والبصر والكلام القائم بالنفس بطريق النقل والعقل ورد على المبتدعة في ذلك كله وتكلم معهم فيما مهدوه لهذه البدع من القول بالصلاح والأصلح والتحسين والتقبيح ، وكمل العقائد في البعثة واحوال الجنة والنار والثواب والعقاب ، وألحق بذلك الكلام في الامامة لما ظهر حينئذ من بدعة الامامية من قولهم انها من عقائد الايمان وانه يجب على النبي تعيينها والخروج عن العهدة في ذلك لمن هي له وكذلك على الامة .

تصدى الأشعري للرد على المعتزلة والرافضة والجهمية والخوارج وغيرهم وقيل انه صنف خمسة وخمسين تصنيفاً وقيل أكثر من ذلك وبعضها ردود ونقض أقوال من لا يقول بقولهم من العلماء ، وقيل انه كان ضعيفاً في التأليف قوياً في المناظرة ، والصحيح انه كان قوياً في كليهما يفيض من علمه على ما يجب ويعرف اجتذاب القلوب اليه ويهتم لرضا العوام والخواص . صفات يتحتم تحقيقها في صاحب كل دعوة . اما صفاته الشخصية فخير صفات يستطيع بها من أوتيها استهواء العقول فلا ينفر منه أحد ولو خالف رأيه . وما كان فيه جمود بعض العلماء ولا تزمتهم وعنزوفهم ، وكان فيه دعابة ومرح ويحب المزاح كثيراً .

وأما عيشه فكان مضموناً لا يحتاج في تحصيله الى كدّ ، يأكل من غلة ضيعة وقفها جده بلال بن أبي بُردة بن أبي موسى الأشعري على عقبه . وكانت نفقته كل يوم سبعة عشر درهماً وقيل أقلّ من ذلك اي انه كان موسعاً عليه لا يضطر الى الرواتب وتولي المناصب بما يقطعه عن غرضه الديني الشريف .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ان في القول بأن ابا الحسن الأشعري بعد ان قضى في مذهب الاعتزال أربعين سنة قد تاب واناب مجالاً للتفكير الطويل . والمعقول انه بقي على تراتيب مذهبه الأصلي وما جاءه الفيض الا بالأخذ عن أئمة المعتزلة وما انفتق ذهنه الا بأصولهم والتشبع بطرائقهم في المناظرة والاجتهاد والتحقيق . وكتاب الأشعري في « مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين » لمن امتع ما كتب عالم في الكشف عن فرق الاسلام اخذ بعضه من الكتب المؤلفة قبله ونسقه وضمنه آراءه ومنازعه وحشاه بفوائد تاريخية وسياسية ووصف فيه مسائل علم الكلام واختلاف ارباب المذاهب فيها وصفاً دقيقاً مفهوماً ومما روى وقائع المطالبين بالخلافة وفصول في الامامة واعتقاد اهل الفرق فيها ، وفي الحكمين والحكم عليهما بما فعلا .

أطلق في كل ذلك العنان لقلمه حتى ان النبيه المتصفح لكلامه لا يشعر ان الأشعري خالف أصحابه القدماء . وخروجه عن مذهبه الأصلي بعد قضاء اكثر عمره فيه دليل مهارة استوجبها فرط حريته واخلاصه لدينه .

الأشعري « لم يبدع رأياً ولم ينشئ مذهباً وانما هو مقرر لمذاهب السلف ، مناضل عما كانت عليه صحابة رسول الله ، فالانتساب اليه انما هو باعتبار انه عقد على طريق السلف نطاقاً وتمسك به ، واقام الحجة والبراهين ، فصار المقتدي به في ذلك ، والسالك سبيله في الدلائل يسمى اشعرياً .

وللأشعري من الكتب المطبوعة « الابانة في أصول الديانة » و « استحسان الخوض في الكلام » و « رسالة الى اهل الثغر بباب الأبواب » . وامتعها مقالات الاسلاميين وهو كاتب مجيد كتب الشريعة بلسان عذب لا تعقيد فيه حتى ليستدرجك الى الاعتقاد بعقيدته من حيث لا تدري ، والاشعري بما اصدره من الطبعة الأخيرة من آرائه التي وافقت قبولاً من عظماء الملة وسرت في الأفكار بدون ان تلقى تصادماً يعتد به قد اراح السواد الأعظم من المسلمين بان عين لهم حدود المعتقدات فكان واضع أساس مذهب اهل السنة والجماعة وكان المؤمنون أزعجوا باختلاف الباحثين .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قالوا كان من الاعتزال ما كان من تفرق كلمة الفرق وكان لرد الفرق بعضها على بعض رواج كثير ولما تعينت معتقدات التشيع والتسنن وانقرض المعتزلة فانقرض بانقراضهم التفكير الحر مع الأسف بات البحث في هذه الأمور وقفاً على خاصة الخاصة يدرسونه من باب الاطلاع على الشيء .

الغزالي

(ابو حامد محمد بن محمد بن محمد بن احمد الطوسي)

(٥٠٥)

من الرواة من يشددون الزاي من الغزالي ومنهم من يخففها وهي الرواية الشائعة . ولد ابو حامد بطوس من بلاد خراسان سنة خمسين واربعمائة ، وقيل انه ولد في غزالة من اعمال طوس ، وقيل كان والده يغزل الصوف ويبيعه . وحرص الأب على ان يكون ابنه فقيهاً لحبه الفقهاء واختلاطه بهم ، واوصى به وبأخيه احد الصوفية وقال انه يأسف أسفاً عظيماً على عدم تعلمه الخط وأشتهي استدراك ما فاتني في ولديّ هذين ، فعلمهما ولا عليك ان تنفد جميع ما أخلفه لهما . فلما مات أقبل الصوفي على تعليمهما الى ان فني المال فجعلهما في مدرسة ليحصلا على قوتهما . وكان الغزالي يحكي هذا ويقول : طلبنا العلم لغير الله فأبى الا ان يكون لله .

قرأ ابو حامد في صباه طرفاً صالحاً من الفقه ببلده ثم سافر الى جرجان واتصل بابي نصر الاسماعيلي وعلق عنه التعليقة ثم رجع الى طوس ثم قدم نيسابور ولازم امام الحرمين ونبغ في أيام استاذه هذا وصنف وهو شاب ، ولما هلك أستاذه قصد الوزير نظام الملك ، وكان مجلسه مجمع أهل العلم وملاذهم ، فناظر العلماء فاعترفوا بفضله فولاه التدريس في مدرسته النظامية ببغداد فقدمها في سنة اربع وثمانين واربعمائة فأعجب الخلقَ حسن كلامه وكمال فضله وفصاحته ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وبعد سنين قضاها في النظامية خرج الى الحج ودخل دمشق وبيت المقدس ثم عاد الى جلّق وأخذ يطوف البلاد فدخل مصر وتوجه منها الى الاسكندرية فأقام بها مدة حاول على ما يظهر ان يركب البحر من الاسكندرية الى المغرب ليلتحق بابن تومرت صاحب الدولة هناك . وكان جاء العراق وأخذ عن ابي حامد مذهب الأشعري فلما عاد الى المغرب قام في المصامدة يفقههم ويعلمهم فلما بلغت ابا حامد وفاة ابن تومرت رجع . وقيل ان الغزالي كان يبطن مذهباً سياسياً اراد ان يتعاون مع تلميذه ابن تومرت على تحقيقه خدمة للدين أو بغية قيام دولة فتية . وعاد ابو حامد الى نيسابور ودرس مدة بالمدرسة النظامية ثم رجع الى طوس واتخذ الى جانب داره مدرسة للفقهاء وخانقاهاً للصوفية ووزع أوقاته على وظائف من تلاوة القرآن ومجالسة ارباب القلوب وتدريس طلبة العلم الى ان انتقل الى جوار ربه عن خمس وخمسين عاماً .

خلق الغزالي صوفياً ومارس أحوالهم زمناً ولكن العلم غلب عليه فتبحر في الفقه والكلام والفلسفة ورزق لساناً بليغاً وقلماً سيالاً وحافظةً نادرةً وذاكرةً واعيةً وجرأةً لا يني معها عن الصدع بالحق الذي عرفه والنور الذي قذف في قلبه وكثيراً ما نعى على علماء السوء الذين نافقوا في دينهم وتقربوا من الأمراء والسلاطين بالعبث بالدنيا والدين . وان رجلاً يحضر مجلس درسه في النظامية ببغداد ثلثمائة عالم من الأعيان المدرسين واكثر من مائة من أبناء الأمراء لأهل ان يحسد ويسعى به الى الملوك .

ولقد طعن في بعض كتبه المصنفة في اسرار المعاملات فقام المشاغبون يزعمون ان فيها ما يخالف مذهب الأصحاب المتقدمين والمشايخ المتكلمين وقالوا ان العدول عن مذهب الأشعري ولو في قيد شبر كفر ، ومباينته ولو في شيء نزر ضلال وخسر ، فكتب رسالة « التفرقة بين الاسلام والزندقة » ومما قال فيها : « واستحقر من لا يحسد ولا يقذف واستصغر من بالكفر أو الضلال لا يعرف ، فأي داع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أكمل وأعقل من سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وقد قالوا انه مجنون من المجانين وأي كلام أجلّ وأصدق من كلام رب العالمين وقد قالوا انه اساطير الأولين . واياك ان تشتغل بخصامهم ، وتطمع في اخمامهم ، فتطمع في غير مطمع ، وتصوت في غير مسمع ، أما سمعت ماقيل :

كل العداوة قد ترجى سلامتها الا عداوة من عاداك من حسد

قيل انه صنف الإحياء في دمشق وقت اغترابه فانتفع الناس به لاحتوائه على أدب الشريعة باسلوب مرتب منظم حتى قال فيه بعض المحققين « لو لم يكن للناس من الكتب التي صنفها الفقهاء الجامعون في تصانيفهم بين النقل والنظر والفكر والاثر غيره لكفى » وغالى بعضهم فقال : لو ضاعت الشريعة لأجزأ الإحياء عنها » . لاجرم انه كتاب التربية الاسلامية العالية مشوب بقليل من التصوف والدعوة الى مجاهدة النفس والعزوف عن الدنيا .

أملى المؤلف من ذلك اجزاء كبيرة فيها افاضة في كل ما أثر . ولو كان فيه الضعيف من الأثر . وكل ما فيه ينمّ عن فكر على أي حال طبق فيه الغابر على الحاضر وأبدع في التأليف وتفنن في حصر مسائل بعينها ومناقشتها . فالإحياء كتاب حمل ما جاء عن الشارع يخلص منه قارئه الى ما رآه مؤلفه من البدع والضلالات ورده باعتدال . ولما كان التصوف غالباً عليه خصوصاً في أخريات أيامه رشح قلمه منه بالضرورة رشحات لا يقول بأكثرها بعض الراسخين في العلم من الأقدمين والمحدثين لأنها تزهد الناس في الحياة والحياة تتوقف على عمل وجهاد ، وهذا ما فهم من روح الشريعة . وكأن الغزالي طلب الكثير من المؤمنين ليصح له القليل وهو ممن لا يرى التضييق والحرج ويقول ان من أشد الناس غلواً واسرافاً طائفة من المتكلمين كفّروا عوام المسلمين وزعموا ان من لا يعرف الكلام معرفتهم . ولم يعرف العقائد الشرعية بأدلتهم التي حرروها فهو كافر . فقال « انهم ضيقوا رحمة الله الواسعة على عباده اولاً ، وجعلوا الجنة وقفاً على شرذمة يسيرة من المتكلمين » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من أجمل الظاهرات في تآليف الغزالي انه يبسط الكلام ويأتي بحجج خصومه وينقضها على نظام مدقق، ففي كتاب تهافت الفلاسفة، قال ان أقوم الفلاسفة بالنقل والتحقيق من المتفلسفة في الاسلام الفارابي ابو النصر وابن سينا فاقتصر على إبطال ما اختاروه ورأوه الصحيح من مذهب رؤسائهم ورأى تكفيرهم في ثلاث مسائل فقط: قِدم العالَم وقولهم ان الجواهر كلها قديمة وقولهم ان الله لا يحيط علماً بالجزئيات الحادثة من الأشخاص وانكارهم بعث الأجساد وحشرها (؟)

قال وما عدا هذه المسائل الثلاث من تصرفهم في الصناعات الالهية واعتقاد التوحيد فيها فمذهبهم قريب من مذاهب المعتزلة، ومذهبهم في تلازم الأسباب الطبيعية هو الذي صرح المعتزلة به في التولد وكذلك جميع ما نقلناه عنهم قد نطق به فريق من فرق الاسلام الا هذه الأصول الثلاث فمن يرى تكفير اهل البدع من فرق الاسلام يكفرهم أيضاً ومن يتوقف عن التكفير يقتصر على تكفيرهم بهذه المسائل .

وصرح بمثل هذا في كتابه «الاقتصاد في الاعتقاد» فقال الذين يصدقون بالصانع والنبوة ويصدقون النبي ولكن يعتقدون اموراً تخالف نصوص الشرع ويقولون ان النبي محق وما قصدَ بما ذكره الاّ صلاح الخلق ولكن لم يقدر على التصريح بالحق لكلال افهام الخلق عن دركه وهؤلاء هم الفلاسفة ويجب القطع بتكفيرهم في ثلاث مسائل انكارهم حشر الأجساد والتعذيب بالنار والتنعيم في الجنة وقولهم ان الله لا يعلم الجزئيات وانما يعلم الكليات وقولهم ان العالم قديم وان الله تعالى متقدم على العالم بالرتبة .

ولولا ان الخوض في مباحث الفلسفة يخرجنا عن موضوعنا لنقلنا زبدة مارد به ابن رشد على الغزالي في كتابه «تهافت التهافت» وهو الكتاب الذي كسره فيلسوف الغرب في الاسلام على نقد تهافت الفلاسفة للغزالي . ولا يزال الفقهاء والفلاسفة مختلفين منذ انتشرت الفلسفة في الأمة الاسلامية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

افتح أي كتاب أو رسالة من تأليف الغزالي تقع في الحال على منزعه وتنشق ريح تصوفه وتدرك مبلغ عطفه على المتصوفة وهو الذي اعتقد ان « حاصل علمهم قطع عقبات النفس ، والتنزه عن اخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها الى تخلية القلب عن غير الله تعالى » . وكان عنده ان اصناف الطالبين اربع فرق : المتكلمون والباطنية والفلاسفة والصوفية وقال انه درس مذاهب هؤلاء كلها درساً عميقاً ثم تعلق قلبه بالصوفية . ورأى الثلاث الفرق الأولى ليست الطريق الموصل الى الحق فحاول ان يحمل الناس على الأخذ بنزعة ما نزع اليها لولا مزاج خاص فيه عنينا بذلك التصوف . وهذه نقطة الضعف في الغزالي اعلم علماء الشافعية على الاطلاق ، وأي كبير او أي انسان تجرد من الضعف .

وكتابه « المنقذ من الضلال » هو تقييد ما عرض له من أول امره الى قبيل وفاته بسنين قليلة قال فيه : « ولم ازل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين الى الآن وقد اناف السن على الخمسين أقتحم لجة هذا البحر العميق واخوض غمرته خوض الجسور لا خوض الجبان الحذور واتوغل في كل مظلمة ، واتهجم على كل مشكلة ، واتقحم كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأستكشف اسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع . . . وقد كان التعطش الى درك حقائق الأمور دأبي وديدني من اول أمري وريعان عمري ، غريزة وفطرة من الله وضعتا في جبلتي لا باختياري وحيلتي . حتى انحلت عني رابطة التقليد وانكسرت على العقائد الموروثة » .

ورأى علم الكلام بعد ان حصله وعقله وصنف فيه غير واف بمقصوده فتركه وبعد الفراغ منه أخذ بالتعمق في الفلسفة لأن « من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوي اعلمهم في اصل العلم ثم يزيد عليه ويجاوز درجته » لا يغني الغناء المطلوب . قال انه لم ير احداً من علماء الاسلام صرف همته وعنايته الى ذلك فاستبان له الضرر من علوم الفلاسفة بعد البحث الشديد ونظر كذلك في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مذهب التعليم او الباطنية ، وبعد ان وصفهم ووصف علومهم قال : فهذه حقيقة حالهم فاخبرهم تقلهم ، فلما خبرناهم نفضنا اليد عنهم أيضاً .

ووصف السبب الذي حداه على ترك التدريس بالمدرسة النظامية في بغداد وقد تولى التدريس فيها اربع عشرة سنة كان فيها موضع اعجاب العلماء فقال انه رأى الا مطمع له في سعادة الآخرة الا بالتقوى ، وكف النفس عن الهوى ، وان ذلك لا يتم الا بالاعراض عن الحياة والمال ، ورأى نيته في التدريس غير خالصة لوجه الله ، بل باعثها طلب الحياة وانتشار الصيت ، فصمم على الخروج من بغداد ، وشهوات الدنيا تجاذبه سلاسلها الى المُقام ، ومنادي الايمان يناديه : الرحيل الرحيل . فلم يزل يتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريباً من ستة أشهر ، أُصيب خلالها بشيء من عقدة اللسان ، وقطع الأطباء طمعهم عن العلاج فصح عزمه على مغادرة تلك البلاد معرضاً عن الجاه والمال والأهل والولد والأصحاب ، وأظهر عزمه على الخروج الى مكة وهو يورّي في نفسه سفر الشام حذراً ان يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمه في المقام بالشام ، فتلطف بلطائف الحيل في الخروج عن بغداد على عزم ان لا يعاودها ، واستهدف لائمة اهل العراق كافة ، اذ لم يكن فيهم من يجوز ان يكون الاعراض عما كان فيه سبباً دينياً . قال وكان ذلك مبلغهم من العلم « ففارقت بغداد وفرقت ما كان معي من المال ، ولم أدخر الا قدر الكفاف وقوت الأطفال ترخصاً بأن مال العراق مرصد للمصالح لكونه وقفاً على المسلمين ، فلم أرَ في العالَم مالاً يأخذه العالِم لعياله أصلح منه .

قال : « ثم دخلت الشام وأقمت به قريباً من سنتين لا شغل لي الا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة اشتغالاً بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى كما كنت حصلته من علم الصوفية ، فكنت اعتكف مدة في مسجد دمشق أصعد منارة المسجد طول النهار وأغلق بابها على نفسي » . قال ثم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تحركت فيه داعية فريضة الحج ولم يذكر هنا أنه زار مصر ودخل الاسكندرية الى ان قال : ودمت على ذلك مقدار عشر سنين وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها والقدر الذي أذكره لينتفع به اني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وان سيرتهم أحسن السير وطريقتهم أصوب الطرق الى آخر ما قال :

قال وبعد طول الغربة والحاح الأهل بالعودة أمر سلطان الوقت من نفسه لا بتحريك من خارج أمر الزام بالنهوض الى نيسابور لتدارك هذه الفترة وبلغ الالزام حداً كاد ينتهي لو اصررت على الخلاف الى حد الوحشة ، وبعد ان استشار جماعة من ارباب القلوب والمشاهدات عرف ان هذه الحركة مبدأ خير ورشد قدرها الله سبحانه على رأس هذه المائة ، وقدر عليه سبحانه باحياء دينه » يشير الى ما ورد في الأثر من ان الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها أمر دينها . وبعد عزلة احدى عشرة سنة عاد الى نيسابور .

كتب الغزالي زهاء سبعين مصنفاً بين كتاب في مجلدة أو مجلدات وبين رسالة . طبع منها لحسن الحظ نحو خمسين بنيت اكثرها على فكر خاص ذات موضوع تشتد حاجة المسلمين اليه . وألف بالفارسية كتاب « التبر المسبوك في نصيحة الملوك » وعربه غيره و « عمدة المحققين وبرهان اليقين» ألفه للسلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي . وكتب بالفارسية كيمياء السعادة وخلاصة التصانيف . ومن تآليفه « فضائح الباطنية » اهداه الى الخليفة المستظهر العباسي وكتبه باشارته على ما يظهر وله « القسطاس المستقيم » و « المضنون به على غير أهله » ومن أجل كتبه « المستصفى » في الأصول ، وعلم الفقه وأصوله يأخذ كما قال من صفو الشرع والعقل سواء السبيل فلا هو تصرف بمحض العقول بحيث لا يتلقاه الشرع بالقبول ، ولا هو مبني على محض التقليد الذي لا يشهد له العقل بالتأييد والتسويد » يول شيخنا العلامة طاهر الجزائري ان أهم الكتب التي ألفت في هذا العهد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

على طريقة المتكلمين اربعة كتب كتاب البرهان لامام الحرمين والمستصفى للغزالي وهما من أهل السنة وكتاب العمد للقاضي عبد الجبار وشرحه المعتمد لأبي الحسين البصري وهما من المعتزلة .

ومن تآليفه «معارج القدس في مدارج معرفة النفس» يريد به العروج من مدارج معرفة النفس الى معرفة الحق جل جلاله يعتمد في فهمه على المنطق «أما الجامد البليد الذي يأخذ العلم بالتقليد فهو عن معرفة مثل هذه العلوم بعيد اذ كلٌّ ميسر لما خلق له» .

ولم تصادف كتب الغزالي اجماعاً على قبولها واملها احرزت أكثرية . فاصحاب الحديث ومنهم ابن تيمية يزيفونها ، والمتصوفة على ما غمست فيه من التصوف لم يرضوا كثيراً عنها ، مع ان كتبه من أحسن ما كتب في عصره والى العصور الأخيرة في معنى التصوف . يقول ابن تيمية في النبوات ان ابا حامد الغزالي بين علماء المسلمين وبين علماء الفلاسفة ، علماء المسلمين يذمونه على ما شارك فيه الفلاسفة مما يخالف دين الاسلام والفلاسفة يعيبونه على ما بقي معه من الاسلام وعلى كونه لم ينسلخ منه بالكلية الى قول الفلاسفة ولهذا كان الحفيد ابن رشد ينشد فيه :

يوماً يمانٍ اذا ما جئت ذا يمن   وان لقيت معدياً فعدنان

ولما دخلت كتب الغزالي المغرب أمر امير المسلمين باحراقها ، وتوعد بالوعيد الشديد من سفك الدم واستئصال المال الى من وجد عنده شيء منها ، واشتد الأمر في ذلك ثم رفع عنها هذا الحرج وضعف التضييق عن كتبه والنظر فيها .

وذمه ابو نصر القشيري على الفلسفة ، وكانوا يقولون ابو حامد قد أمرضه الشفاء — كتاب شفاء ابن سينا — ولبعض العلماء كلام كثير في ذمه على ما دخل فيه من الفلسفة ولعلماء الأندلس في ذلك مجموع كثير . وذكروا ان الغزالي قال في ميزان العمل : ان الفاضل له ثلاث عقائد عقيدة مع العوام يعيش بها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في الدنيا كالفقه مثلاً وعقيدة مع الطلبة يدرسها لهم كالكلام ، الثالثة لا يطلع عليه احد الا الخواص ، ولهذا صنف الكتب المضنون بهـا على غير أهلها وهي فلسفة محضة سلك فيها مسلك ابن سينا .

قال ابن الجوزي في « تلبيس ابليس » ان ابا حامد صنف للصوفية كتاب الاحياء على طريقة القوم وملأه بالأحاديث الباطلة وهو لا يعلم بطلانها وتكلم في علم المكاشفة وخرج عن قانون الفقه وقال كلاماً من جنس كلام الباطنية وان الصوفية في حال يقظتهم يشاهدون الملائكة وارواح الأنبياء ويسمعون أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور الى درجات يضيق عنها نطاق العقل .

وكيف كان حكم بعض العلماء على الغزالي فان الهنات التي عزوها اليه لا تقدح كثيراً في كتبه ومن سعادته ان آراءه تنوقلت وهو حي حتى قال انه سمع مرة احد المدرسين في دمشق يقول : وقال الغزالي فترك البلد من الغد ، والناس لا يعرفون ان الغزالي حاضر في الدرس ، قال انه فعل ذلك مخافة ان يقع في الغرور .

علي بن رَبَن

(٢٤٧)

في المؤلفين من لم نعرفهم الا بصفحات قليلة أبقت عليهـا الأيام من ألوف كتبوها ومنهم علي بن رَبَن — والرَّبن والربين والراب اسماء لمقدمي شريعة اليهود ، ومعنى ربن المعلم العظيم . وربن اسم ابي علي كان ربن اليهود .

ولد علي في طبرستان وعرف في صباه وكهولته باتساعه في الفلسفة والطب والطبيعيات وعنه اخذ محمد بن زكريا الرازي في الريّ لما خرج من طبرستان واستفاد منه علماً كثيراً . وأخذ هو عن حنين بن اسحق لما وافى العراق . وتصرّف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لولاة طبرستان وكتب للمازيار بن قارن المتغلب على الجبال وغيرها . ولما وقعت الفتنة في بلاده خرج الى الري ومنها الى العراق وكانت سبقته اليها شهرته واتصل بالخليفة المعتصم واسلم على يده فقربه فأصبح من أطباء البيت العباسي ثم أدخله المتوكل في جملة ندمائه .

ألف ابن ربن كثيراً في الطب والصحة وله كتاب فردوس الحكمة وهو معلمة طبية بها سلكه به ابو حيان التوحيدي في سلك نوابغ المؤلفين وضرب به المثل بالاجادة ، وله غيره في الأدب ، وكان متمكناً من الآداب العربية وعرفناه بكتاب له صغير اسماه « الدين والدولة » أثبت فيه النبوة اثبات العارف بالأديان الأخرى ولا سيما اليهودية والنصرانية ، قيل ان الخليفة المتوكل عاونه في تأليفه . وكتابه هذا دليل ناصع على اضطلاعه بالحكمة وانه انتحل الاسلام عن بصيرة بعد ان نضج في العلوم وأحفى المشاكل بحثاً .

وقد جود الكلام في الدين والدولة على الصحابة وعرض لجميل سيرتهم وعفتهم عن المال والرغبة عن الرفاهية كما جود في فضل أمية الرسول . ومن أجمل ما فيه تقول عن الكتاب المقدس والنبوات عليها مسحة من البلاغة اكثر من الترجمات المشهورة لعهدنا ، ولعلها منقولة من الترجمات الضائعة من التوراة والأناجيل او انها كانت من ترجمته هو . وكان يعرف لغات أخرى مع العربية .

وينبئك كتاب ابن ربن انه من أعظم العلماء في الأديان ولو لم تبق عليه الأيام لنسي حتى اسمه اللهم الا عند أفراد دأبهم البحث عن المفقود والموجود من هذا التراث العربي العظيم .

مثال من كلام ابن ربن . قال في الدلائل على تصحيح الأخبار : رأينا أمماً كثيرة العدد عظيمة القدر موصوفة بالأفهام والأحلام يشهدون لعدة من الخبثة الكذابين بجميع ما أدلوه مثل الزنادقة والمجوس اما تقليداً وإلفاً واما غباوةً ومحكاً واما اجباراً او كرهاً ، كما فعل زرادشت متنبئ المجوس فانه لم يزل يتأتى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ليشتاسف الملك حتى وصل اليه وزرع من وساوسه في صدره ثم لم يزل يختله بذكر الله والدعاء اليه ، ويقتل في الذروة والغارب حتى فتله عن دينه ولواه الى رأيه ، ثم أظهر له ما كان يضمره من الشرك ، وزين له نكاح الأمهات والبنات ، وأكل القذر المذر من النجاسات ، فكان الملك بعد ذلك هو الذي أكره اهل مملكته على دينه . وفعل ماني شبيهاً بذلك فانه ظهر في زمان كان الغالب فيه دينين النصرانية والمجوسية فاختدع النصارى بان قال لهم انه رسول المسيح عليه السلام ، وخلب المجوس بأن وافقهم على الأصلين . فلما وجدنا من الاجماع ما هو هكذا ووجدنا منه ما هو كالاسلام علمنا ان قبول كل اجماع فتنة ورد كل اجماع ضلالة .

ومما أثر له : الطبيب الجاهل مستحث الموت . اجتنب ثلاثة وعليك بأربعة ولا حاجة لك الى الطبيب : اجتنب الغبار والدخان والنتن وعليك بالدسم والحلوى والحمام والطيب مع الاقتصاد . ومما نقل عنه التكلف يورث الخسارة . شر القول ما نقض بعضه بعضاً .

لا تتألف مما وصل الينا من أخبار ابن ربن فكرة تامة للحكم عليه حكماً صحيحاً والغالب انه كان رجلاً أعظم مما صوره لنا من عرضوا للترجمة له وهم مع هذا قلائل .

محمد كرد علي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net